



المرأة عبر الدين والتنشئة الاجتماعية

مصطفى القرموني*

الحديث عن المرأة بشكل عام يتطلب الشجاعة والجرأة المعرفية وسط أي مجتمع عبر صيرورته الاجتماعية. فكل سلوك صادر عن الأفراد والجماعات، هو تجل من تجليات نمط من الوعي السائد، وهو في النهاية مكون ثقافي لتلك الجماعة التي أفرزته.

وللإحاطة بموضوعنا، لابد من اختراق هذه المنظومة المغلقة ومن تم تفكيك رموزها وإشاراتها واعتبارها نتاجا تاريخيا خالصا أفرزه الناس من خلال مستوياتهم الاقتصادية والثقافية ومعاييرهم المعرفية. بعبارة أخرى إن ما أنتجته ذهنية الأسلاف، وما زالت بين ظهرانينا، من قيم ومعايير كانت خاضعة لظروفهم وطبيعة حياتهم وثقافتهم ومعارفهم التي لم تكن تسمح لهم إلا بما اهتدوا إليه وطبقوه، ولعل من أهم القيم التي رافقت الحياة وأصبحت عائقا قويا في سبيل تطور مجتمعنا التقليدي صوب المعاصرة والحداثة، تلك القيم التي تتعلق بالمرأة والتي أصبحت بحاجة أكيدة إلى القراءة والمساءلة.

لذا سنتفحص تلك القيم البعولية التي ميزت الذهنية الإسلامية بميزة الاستبداد الذكوري والتي تملي علينا تصوراتنا وتعاملنا مع الجنس الآخر، وما نتج عنه من أمثلة شعبية نتداولها ونتنشي بها دونما اكترات بحمولتها الذكورية الاستعبادية، حيث أن وظيفة الأمثال لا تتوقف عند رسم معالم الحياة الاجتماعية ورصد أنماط السلوك الإنساني، بل تتعداه إلى تقديم نموذج يقتدى به. ولكون المرأة محور الحياة في البيت

* أستاذ باحث وفاعل جمعوي – الدار البيضاء.

وخارجه، فقد تناولتها الديانات والأمثال في أدوارها المختلفة.

وسيتم التعامل مع الموضوع في ثنائية الدين والأمثال الشعبية على أساس أنهما من روافد التنشئة الاجتماعية، والتي تضم فيما تضم: الإعلام المكتوب والسمعي البصري، المدرسة، الشارع وبشكل عام المعيش اليومي.

نعلم جميعا أن أكثر من 60% من المغاربة يستمعون لإذاعة محمد السادس للقرآن وللإذاعة الوطنية، وسؤالي الذي أطرحه هو: " أي خطاب تروجه هذه الإذاعات فيما يخص المرأة؟، ونعلم أن أكثر من 60 % من المغاربة لا يشاهدون التلفزيون المغربي، وأن أكثر من 80 % من هؤلاء يشاهدون الفضائيات العربية وأية فضائيات؟، وأطرح السؤال: ماذا يروج كخطاب حول المرأة عبر هذه القنوات؟

على مستوى المدرسة، وأعطي مثالا هنا بالتعليم الأولي، فقط، من 3 إلى 6 سنوات حيث تسوى شخصية الفرد، نعلم أن 42 % مما يلقن لهذه الفئة العمرية هو ذو محمول ديني منغلق يكرس دونية المرأة ويمعن في تكريس الذكورية.

إذن كل ما نتلقاه من وسائل الإعلام وفي مدارسنا يسير عكس ما نسعى إليه من تحرر وتخلص من هيمنة الفكر الذكوري.

ما هو انعكاس الديني على وسائل الإعلام؟ على البرامج التعليمية؟ على صناعة أفكارنا وقولبتها وصياغة تصوراتنا حول الفكر الذكوري وترسيخه فينا؟

ومما ينبغي الإشارة إليه، والتأكيد عليه هنا، هو أن هناك من سيقول إن الإسلام بريء من هذا، ولكن رغم إعمالنا لمبدأ الجرح والتعديل أو أي مقياس آخر والأخذ برأي الفقهاء ورجال الدين "المتنورين" الذين اعتمدوا في تفسير النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على قاعدة التفريق بين المساند والقواعد وبين الثوابت والأصول، بهدف معرفة تاريخية النص وأسباب نزوله وظروف هذا النزول لنسف هذا المنظور أو هذا المنطوق، فإنه موجود في الأثر، ويباع على الأرصفة لمن يقرأ، ويتم تناقله في قاعات الصلاة ومحارب المساجد، وبالتالي يؤثر بشكل مباشر في صياغة عقليتنا وفي تنشئتنا وما نروجه حول المرأة ويلمز ويغمز به في الشوارع أثناء التحرش الجنسي.

نبدأ مقاربتنا من نظرية الخلق:

تشترك أغلب قصص الخلق التي أفرزتها المجتمعات، ومنها المجتمع الإسلامي، أن أصل الكون ذكر، وتوجزه المقولة البابلية العربية القديمة بأن الرجل هو ظل الله، والملك هو مرآة الإله، ويتضح من ذلك أن سلطة السماء هي سلطة ذكورية محضة لأن الرجل هو ظل الله المعكوس على الأرض. وبالتالي يستبعد أن تكون سلطة الأرض أو سلطة السماء سلطة أنثوية.

ونجد في أمثالنا الشعبية من تشبع بهذا المفهوم: "ظل رجل ولا ظل حائط" بمعنى أن المرأة مهما علا شأنها، لا قيمة لها بدون الذكر، رجل، هذا الرجل الذي يرمز إلى السلطة إلى الخالق....

البنت إما رجلها وإما قبرها أي أن المرأة بدون رجل ينبغي تنحيتها خوفا من العار والفضيحة.

تدافع نظرية الخلق على سقوط آدم في المعصية بسبب المرأة، وتحمل الأنثى وصمة السقوط، فلا يعقل أن يسقط آدم (الرجل) في الخطيئة، وللخروج من هذه الورطة سنلبس حواء جانبا مهما في عثرة السقوط: أكلت حواء من الشجرة المحرمة ثم قالت: يا آدم كل فإني قد أكلت فلم يضرني فلما أكلا بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان من ورق الجنة (الطبري/ج1ص53). يطرد آدم وتابعه الأنثى من الجنة جزاء المعصية. يستمر آدم في محنة الامتحانات الإلهية بعد هبوطه إلى الأرض ويستخدم إبليس قدراته ووسائله لإيقاع آدم في الخطايا، على أن الذهنية الذكورية، تؤكد على أن إبليس أستخدم من أهم وسائله الإغوائية الشريرة فتنة الأنثى لإسقاط الرجل (البريء)

في الامتحانات المتتالية.

- المرأة شر كلها وشرّ ما فيها أنه لابدّ منها.
- ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء.

و لم يستفرد الإسلام بهذا الموقف بل نجده عند الديانات السابقة اليهودية والمسيحية :تقول التوراة، حول قصة الخلق، إن سبب معصية آدم هي المرأة، إذ حين أغوتها الأفعى بمخالفة أمر الله والأكل من الشجرة المحرمة عليها وعلى زوجها، لم تكتف بذلك، بل عرضت الأكل من تلك الشجرة على آدم فأكل منها، وهنا قال الرب للمرأة "... ما هذا الذي فعلتِ فقالت المرأة: الحية أغوتني فأكلت، فقال الرب الإله للحية لأنك فعلتِ هذا ملعونة أنتِ، وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع، تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك". هكذا تلعب المرأة دوراً رئيسياً في إدخال الإثم إلى الجنة ولذلك تستحق اللعنة من الإله الرب لأنها "مغوية شريرة تضل الشباب المستقيم"، ولأنها كذلك يسيّد الرجل عليها. بل إن التوراة تتوج هذا العقاب بالقول " من المرأة ابتدأت الخطيئة وبسببها نموت جميعاً".

وأحسن تعبير على هذا هو المثل العربي "النساء حبائل الشيطان، أخروا النساء حيث أخرهن الله".

"المرأة إبليس محزمة بالأفعى" (مغربي)

في الأناجيل الأربعة، نجد أن موقف الديانة المسيحية، من المرأة، وكما هو منصوص عليه في رسائل بولس المستوحاة من التوراة، التي يؤمن المسيحيون به ككتاب مقدس لا يختلف، فكما في اليهودية، يُحَمّل بولس المرأة مسؤولية الخطيئة الأولى ويستخدم ذلك لإلزام النساء بإطاعة الرجال فيقول في هذا الصدد: "على المرأة أن تتلقى التعليم وهي صامتة بكل خضوع. لا أجيز للمرأة أن تُعلم أو تتسلط على الرجل، بل تحافظ على السكوت، فإن آدم جُبل أولا وبعده حواء، و لم يغو آدم، بل المرأة هي التي أغويت فوقعت في المعصية، ويأمر بولس، المرأة، في أكثر من موضع من رسائله، بالطاعة العمياء للرجل لأنه "رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة" ولأن "المرأة خلقت لأجل الرجل وليس العكس"، كما أوجب بولس على المرأة حجاب الرأس، وأمرها بملازمة المترل ومنعها من الكلام في الكنيسة قائلاً: "لتصمت نساؤكم في الكنائس، لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا،

ولكن إن أردن أن يتعلمن شيئا، فليسألن رجالهن في البيت، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في الكنيسة.

"كل بلية من النسا تجي" أي أن المرأة هي أصل المعاصي وأم البلاء.

ونجد عبر التاريخ استثنائين يخرجان عن ذكورية السلطة هما:

أولا: قصة بلقيس ملكة سبأ التي تخالف المسار التاريخي، غير أن هذا الاختلاف سيتم تداركه مع النبي سليمان الذي سيراسلها ويخيرها إما أن تدخل تحت طاعته أو سيهاجمها، فتزوجها وانتهى أمرها.

ثانيا: قصة اللات، والعزى، ومناة، الأصنام عند عرب ما قبل الإسلام، فهي آلهة رغم أنها إناث، إلا أن الإسلام التوحيدي سيرجع الأمور إلى نصابها، ويصبح الله هو الواحد الأحد، وقطع دابر هذا الخلط.

كما أن الله جعل في الأرض من يخلفه من الجنس الذكوري فحسب: إبليس وآدم.

نلاحظ كيف أن الديانات التوحيدية حسمت في أمر الذكورية، وستصبح القاعدة، إلى حدود القرن العشرين، في الغرب على الأقل، أن الذكر هو سيد الموقف، وما نتج عن هذا وما زال في مجتمعاتنا الإسلامية العربية من سيطرة الفكر الذكوري.

تستفحل ظاهرة تكريس الذكورية في الآية "الرجال قوامون على النساء..." النساء: الآية 34. "وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ" البقرة: من الآية 228

يقول النسفي في تفسير الآية، إن تخصيص الرجل بالقوامة على المرأة يعود إلى تفوقه عليها ب:"العقل والعزم والحزم والرأي والقوة والجهاد وكمال الصوم والصلاة والنبوة والخلافة والإمامة والآذان والخطبة والجماعة والجمعة والشهادة في الحدود والقصاص وتضعيف الميراث وملك النكاح والطلاق....." ويورد النسفي عن أبي ذر الغفاري بأن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا منهم ثلثمائة وثلاثة عشر رسولا أولهم آدم وآخرهم محمد منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد، ويذكر بأن كل الأنبياء من الذكور ولا توجد بينهم إناث.

ومن مفهوم القوامة انسلت مفاهيم أخرى إما بآيات قرآنية أو بأحاديث أو بمأثور القول عن الأولين ومن ذلك:

التبعية في الزواج لإعادة إنتاج السلطة الذكرية عن طريق عقود النكاح، إنتاج ذكور لإعادة السلطة وإدامتها وإنتاج إناث لاستمرار السيرورة الإنتاجية ويتبجح أحد الكتاب قائلا بأن الله تعالى خلق المرأة وجعلها أعظم معمل وأروع مصنع للإنتاج.

معلوم لدى الجميع هيمنة الرجل بعقليته الذكورية على مقاليد الأمور في المجتمع واستعماره للمرأة استعماراً جنسياً يتجاوز الاضطهاد الطبقي والقومي والفئوي، بحيث وصل الأمر إلى وصف كل ما يتعلق بهذا الجنس بدءاً من أعضائها إلى حركاتها وتصرفاتها إلى نمط تفكيرها موضع الاستهزاء والاستصغار والضعف والمحرمات والعيوب والخطيئة وو...الخ.

وقد زين للناس – الرجال– حب الشهوات من متاع الدنيا من النساء. إن البهائم همها بطونها وإن النساء همهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكنّ.

لقد منحت قيم الاستبداد الذكوري الحق المطلق للجنس البعولي في اختياراته الأنثوية من حيث النوع والعدد والعمر لممارسة حريته الجنسية وأعطته حق الطلاق، وأعطت هذه القيم الحق للرجل في ممارسة رغبته بأي وقت، شاءت المرأة أو أبت: "إذا دعا الرجل إمرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبانا عليها لعنتها الملائكة حتى الصباح".

وكما تكون الأنثى في دار الزوال جنسا إغوائيا، تظل هي كذلك في دار البقاء رمزا لإغواء الرجال وأجرا (الأجر = الثواب) على أيمانهم وطاعتهم في الدار الآخرة: لهم أزواج مطهرة من الأنجاس والحيض والنفاس.

خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها.

ولعلمه – صلى الله عليه وسلم- ما تثيره المرأة المتعطرة في صدور الرجال أمرها بقوله :إذا خرجت المرأة إلى المسجد فلتغتسل من الطيب كما تغتسل من الجنابة. وإمعانا في إصغارها وإدلالها نجد هذا الحديث:إذا استعطرت إمرأة فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية. قال الترمذي هذا حديث صحيح ولأبي هريرة مثله عند أبي داوود والذي يبدو أن اللفظة ،يعني زانية ،من قول أبي موسى الأشعري. أما فيما يخص تأديب المرأة وضربها فقد ذهب الفقهاء مضارب، إنما شرّعت هذه العقوبات كتأديب يراد به إصلاح الأمر وليس استخدام القسوة ضد المرأة، إذ هناك من النساء من تكفيها النظرة التي لا تنم عن رضا وارتياح البعل، وهناك امرأة تحتاج إلى الموعظة لأنه لا تكفيها النظرة، أما المرأة التي لا تنفع فيها الموعظة ومخاطبة العقل فتحتاج إلى أن يغمز منها جانب العاطفة فتهجر في المضاجع، فيما المرأة المتبلدة الحس والعقل، والتي تأتي بالفواحش فتحتاج إلى الإيلام أو التخويف بالضرب. أما الضرب نفسه، في حال الاضطرار، فهو ضرب أقرب ما يكون إلى الدعابة منه إلى ضرب الاحتقار والمهانة.

- لحر بالغمزة، والعبد بالدبزة
- لا يسأل الرجل فيما ضرب أهله.
- لا يجلد أحدكم امرأة جلد العبد، ثم لعله يعانقها ويجامعها في آخر اليوم.
- لو كنت آمراً أن يسجد أحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها (...) لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد، ثم استقبلته امرأته تلحسه، ما أدت حقه.
- مثَل المرأة الصالحة بين النساء مثَل الغراب الأعصم بين مائة غراب.

كل هذا وغيره يؤثر في تنشئتنا، ونقوم بأفعال ونروج أفكارا، لصالح الذكورية وضد المرأة، رغم أننا نصف أنفسنا بالتقدميين والحداثيين والمدافعين عن حقوق الإنسان عامة وحقوق المرأة خاصة، ونعيش ذاك الشرخ المعرفي، بين ما أنا مؤمن به وما أقوم به، وهذه القيم والتصورات العدوانية والامتهانية ليست حكرا على الرجال فحسب

إنما يشكل ذهن المرأة نفسها أحد الخزانات الكبيرة لقيم الذكورة الاستبدادية الشيء الذي استهضمته المرأة وتروجه قانعة خانعة وكأن الأمر شيء عادي وسنة الله في خلقه.

تظل مسألة تصحيح التصورات حول المرأة من المسائل المهمة لولوج المجتمعات التقليدية ومنها المجتمع المغربي فضاءات الأزمنة المعاصرة، لذا ينبغي تحليل الأذهان الذكورية والنسائية ونقد قيمها الجوهرية والأساسية وافتحاص منظومتنا التربوية التعلمية، ومراقبة وسائل الإعلام من أجل الوصول إلى ولوج الحداثة، التي أصبحت في حد ذاتها متجاوزة.